مقدمة

يتناقل العالم حكاية شعبية إفريقية تتحدث عن قبيلة ضاقت بالمسنين من أفرادها. ورأت أن تتخلص منهم، لأنهم لا يعملون ولا ينتجون، فى حين أنهم يكلفون أهلهم نفقات باهظة، فما كان من الشباب إلا أن ألقوا المسنين فى رُعونة إلى ما وراء الجبل، فيما عدا واحدًا منهم قرر أن يحتفظ بجده، ويبقيه مختفيًا عن أعين الباقين.. وحدث أن أغارت قبيلة أخرى على هذه القبيلة، ولجأ الشاب إلى جده يسأله المشورة، فوضع له خطة نجحت فى الانتصار على القبيلة المغيرة.. وقامت الاحتفالات بالنصر، وحملوا الشاب الذى قدم لهم الخطة على الأعناق وراحوا يهتفون باسمه، فما كان منه إلا أن قفز من فوق أكتافهم ونزل إلى الأرض ليعترف بأن جده هو الأحق بهذا الهتاف، وكشف لهم عن السر، فخجلوا من أنفسهم، وكفُّوا عن عملهم السيئ، وأحسنوا إلى كبار السن، الذين سبق لهم أن أعطوا الكثير فى شبابهم، وأصبح من حقهم أن يلقوا الرعاية فى شيخوختهم.

ولقد أدركت الإنسانية روعة هذه القصة، وبدأت رعاية واسعة النطاق للأطفال، إعدادًا لهم لكى يعملوا ويعطوا فى شبابهم المقبل.. كما أنهم راحوا يرعون كبار السن جزاءً وفاقًا لما قدموه وأنجزوه فى شبابهم.. ووضعت الخطط المناسبة لرعاية الإنسان عند

طَرَفَىْ حياته: البداية، والنهاية، وبُذلت جهود طيبة فى هذا الشأن، بدأت بدراسات متعمقة لحياة المسنين، وكيف يمكن مواجهة متطلباتها وردّ جميلها، بل أصبح «المسنون» علمًا يدرسه طلاب معاهد الخدمة الاجتماعية، وصار لهذه الفئة علم اجتماع، وعلم نفس، وفلسفة خاصة بها. وتبارت الأمم فى ألوان من الرعاية عرفها التاريخ الحديث والمعاصر. ورُصدت اعتمادات كبيرة لهذا الغرض، وأُنشئت دور خاصة لمن ليس له عائلة من بينهم، وصُرفت لهم المعاشات التى سبق تدبير المال الخاص بها من خلال الشباب من جانب، والحكومة من جانب آخر، خاصة بعد أن نجحت الرعاية الطبية فى مضاعفة متوسطات الأعمار، حتى لقد تجاوزت السبعين والثمانين عامًا، وامتدت بالبعض إلى ما بعد المائة.

ولم تكن الرعاية مجرد تقديم مال وخدمات، بل امتدت للاستفادة من خبرات هؤلاء الذين أبلوا بلاءً حسنًا فى عملهم، وصار من الضرورى أن ينقلوا ما حصلوه إلى الأجيال الجديدة، بعد محاولات جادة لنبذ هذا الذى يسمى «صراع الأجيال»، ليحل محله رصف الجسور ما بينها، لكى يسلم كل جيل الراية للجيل الذى بعده راضيًا مرضيًّا لقاء هذه الرعاية، التى تجسدت فى استثمار وقت فراغهم بعد إحالتهم إلى المعاش أو التقاعد، بتدبير أعمالٍ ميسورة لهم، وفتح المجال أمامهم لقضاء أيامهم بشكل جميل، مريح، ومربح، إذ لم يعد مقبولاً ولا معقولاً أن يُلْقَى بهم إلى ما وراء الجبال ـ كما تقول

الحكاية الشعبية الإفريقية ـ كما أن الإنسانية لم تعد تعاملهم كما كانت تعامل (خيل الحكومة) بالتخلص منها بعد أن تشيخ وتصبح غير قادرة على العمل.

وقد صدرت كتب عدة، بكل لغات العالم، موجهة إلى كبار السن، ترسم لهم سبيل الحياة بعد الستين فى أمان وهدوء، وتشرح لهم كيف يحافظون على صحتهم، وكيف يتم علاجهم إذا داهمهم المرض.. وهناك مشروعات واسعة النطاق للتأمينات التى يتم وضعها لصالح هؤلاء الذين يدين لهم الشباب بعطاء سابق وافر.. لكن هذه الكتب فى لغتنا العربية قليلة، بل نادرة.. وقد نجد فصلاً فى كتاب عن خدمة الجماعة أو خدمة الفرد، وقد نجد بضع مقالات متناثرة فى الصحف والمجلات، وربما يُوجه البعض إليهم عبر الإذاعة المسموعة أو المرئية ببعض البرامج والنصائح ما بين حين وآخر.. وهم يسمونهم فى أوربا وأمريكا (سينيورز)، أى «السادة»، تكريمًا وتعظيمًا، ويفردون لهم مقاعد فى السيارات العامة ودور المسرح والسينما، ويخفضون لهم أجور التنقل فى سائر وسائل المواصلات.. إن لهم ميزة خاصة فى كافة الأمور...

ولست أدرى لماذا اجتذبنى هذا الموضوع منذ وقت بعيد؛ إن قلمى جرى بالعديد من المقالات والأحاديث الإذاعية من حوله منذ وقت بعيد، وكان أن أتاحت لى السيدة الجليلة، الإذاعية اللامعة، السيدة «عواطف البدرى» فرصة اغتنمتها من أجل أن أكتب الكثير، وأيضًا

أقرأ الكثير فى هذا المجال الواسع، الذى يحتاج إلى مقتحمين جُدُد، وقد دخلت إليه وئيدَ الخُطَى، وتتابعت أفكارى وخواطرى حوله، إلى أن تجمعت أمامى مادة تصلح كتابًا.. سَرَّنى كثيرًا أن يتبناه الصديق الناشر المعروف الأستاذ محمد رشاد، لكى ترى هذه الكلمات النور، فى العام الدولى الذى خصصته الأمم المتحدة للمسنين.. وهو عام ١٩٩٩.. وكثيرون منا استقبلوا هذا العام مُستبشرين خيرًا، راجين أن يعم فيه السلام كل أرجاء العالم.. وكان فى تخصيصه لكبار السن لفتة إنسانية رائعة، فليس بيننا إلاّ مَنْ له جَدٌّ، أو أم، أو أُب بلغ من السن «عتيًا». وقد كتبت هذه الفصول على فترات متباعدة، لذلك أرجو القارئ الكريم أن يتسامح إذا ما وجد فكرة مكررة تناولتها من أكثر من زاوية، وكل ما أستهدفه من هذا الكتاب أن يكون خطوة فى رحلة الألف ميل، كما أتمنى لو أقبل عليه كبار السن باقتنائه أو بالحصول عليه هدية من الأبناء والأحفاد، إذ يضم كلمات كان كل منهم يتمنى لو أنه قالها أو وجهها له، حفاوة به، وتقديرًا لما بذل وأعطى، واعترافًا بجميل يطوِّق الأعناق الشابّةَ.

* * *